تنظيم العقل

التنظيم ليس هدفا بل هو وسيلة عقلية - كغيرها من الوسائل الأخرى - كالتخطيط والتعليم والتدريب والتفكير ، والوسيلة تساعد مع غيرها من الوسائل للوصول إلى غاية أو غايات. ومن الحقائق التى يجهلها الكسالى أن العمل المنظم أقل تكلفة من العمل غير المنظم ، والعمل المتقن أقل تكلفة على المدى البعيد من العمل غير المتقن. والتنظيم ركن أساسى فى الإتقان والإبداع ؛ فمقابل التنظيم هو الفوضى وبئس المقابل. ولا تجد شعبا منظما يتخلف ، ولا شعبا فوضويا يتقدم ، ولا تجد جمالا فوضويا ، بل إن أساس الجمال هو روعة التنسيق وإن خفيت يد المنسق ، ومهما كانت بساطة المكونات فحسن التنظيم يخلق الروعة والجمال ، إنها سنن فى كون بديع التنظيم والإتقان والالتزام ، ومن يعبث فإنما يعبث بنفسه. فالتنظيم يحسن الصورة ويجعلها أشد وضوحا وأكثر قابلية للاستيعاب والتطوير.

والعقل منذ نشأته يميل للتنظيم بفطرته ، ويلاحظ ذلك من سرعة تجاوب العقل مع الحركات المنظمة والشعر الموزون والأنغام الراقية وإعجابه بالجمال. وترى الطفل وهو ما زال فى سن الرضاع يتمايل مع الأنغام أو النشيد الواضح الوزن دون أن يفهم المعنى ، وهذا إعجاب فطرى بجمال التنظيم والتناغم.

وعجيب كل العجب حال من يتصورون أنهم بعقولهم نظموا بعض الأشياء من حولهم ، كمكونات المنزل أو المصنع - مثلا - شاعرين بالجهود العقلية والعضلية التى بذلت فى تحقيق ذلك التنظيم ثم يظنون أن وسيلة تفكيرهم - وهى العقول - وجدت بغير واجد وأعدت بدون سابق إعداد ، أم تراهم يحسبونها تعمل بعشوائية! وإن كانوا يرونها كذلك فهل يكون عليهم حرج!

ومن أسباب سهولة تنظيم الأشياء المادية أنها أكثر قابلية للحصر والتصنيف والترتيب وحتى التسخير ، أما المسائل الفكرية فغير ذلك وتلك هى المشكلة. ولا يغرنا التنظيم المادى وحده - الموجود فى بعض الدول - فذلك يمكن برمجته ويمكن أن يضل ويؤدى لخسران الإنسان لنفسه فى غياب الفكر السامى ، ولا نقلل من قيمة التنظيم المادى بل هو مطلوب ، لكن يجب أن يتم فى ضوء تنظيم فكرى واضح الغاية. لقد قطع الإنسان شوطا طويلا فى مجال الجمال المادى وفى مقابل ذلك لم يتقدم الجمال الفكرى بل قد نزعم أنه تأخر ، وانعكس التقدم المادى سلبيا على الفكر ، فأصبح الإنسان عبدا للمادة التى سخرها الله له ، فأى خلل تنظيمى أسوأ من ذلك!

لقد نظمنا مجالات اللهو وللعب والهزل ، وأصبح للألعاب برامج وخطط وجداول وتنظيمات وندوات وتُوفر لها الإمكانات والدعم بالملايين ، وتُفرد لها الصفحات ، وتخصص لها ساعات البث الإعلامى ، ولها قواعد تُحترم ومن يخالفها يعاقب! وتتعطل معظم المصالح - بحضور علية القوم كقدوة - وتتوتر

الأعصاب وتغلى العواطف الهوجاء بالتعصب الأعمى وتعصف بالعقول أثناء لعب المباريات التى يتم النفخ فيها بأساليب شيطانية! مما يستلزم وجود قوات مسلحة لمكافحة الشغب والشر الناتج عن الهوس وجنون التعصب!

ذلك فى مجالات **اللعب واللهو والتفاخر والزينة** ، كما وصفها ربنا فى كتابه العزيز ، أما فى مجالات الخير والجد وما يتعلق بالمصير الأبدى فتجد التعتيم المُريب ، وتغييب القواعد والأصول ، وغياب الخطط وتقليص البرامج ، والتقتير! والتجاهل! وتجفيف المنابع!!

عمليات التنظيم

التنظيم هو إبداع عقلى فائق القيمة ، وهونوع من الفن الراقى. وغياب التنظيم يعنى فتح أبواب الفوضى وتعارض وبعثرة الجهود وتلف الموارد. فالتنظيم من أبرز أساليب إكساب الكم كيفا، فهو وسيلة رفع أو زيادة قيمة الأشياء ، والتنظيم يساعد على تقليل الفاقد بأقل تكاليف. فالتنظيم يعد من أعلى العمليات مردودا على صاحبه ، أى أن فائدته أعلى كثيرا من تكلفته. والتنظيم يكسب الأشياء جمالا ووضوحا ويبرز مزاياها ، لذلك فهو يتسم بقيم فكرية معنوية ، والقيمة المضافة هنا معنوية أكثر منها مادية. أى التنظيم لا يضيف مادة ولكن يكسب المادة قيمة ويكشف مواضع الضعف والخلل ويطرحها لتلقى العلاج. ونظرا للطبيعة المعنوية للتنظيم فيتعذر حصر أنواعه ، ولكن العقل

المبدع يستطيع أن يبتكر لكل جملة أشياء نوعا من التنظيم ؛ فتنظيم الأسلاك غير تنظيم المائدة ، غير تنظيم اللعب ، غير تنظيم المواصلات ، وتنظيم الدخول غير تنظيم الخروج. التنظيم يستلزم الفرز لاستبانة نوعية وخصائص كل عنصر قبل الترتيب.

التنظيم يظل يستدق بقدر ما تستدق مكونات المفردات المطلوب تنظيمها. فمثلا فى المدينة يوجد تنظيم للبيوت ، وفى داخل كل بيت يوجد تنظيم خاص لمكوناته ، وفى داخل كل غرفة يوجد التنظيم الذى يناسبها ، وفى داخل كل مكون من مكونات الغرفة يوجد تنظيم أخص....إلى أدق ما يمكن تصوره. والمغالاة فى أى شىء ليست ممدوحة ؛ لسبب رئيسى هو أن المغالاة فى أى شىء تكون على حساب الأشياء الأخرى وذلك يخل بالتوازن ويهدد السلامة ، وتنطبق هذه القاعدة العامة على التنظيم أيضا.

للتنظيم المادى قواعد أصبحت معروفة ومتعارف عليها ومطبقة وقابلة للتطوير ، ويمكن أن يعمل النظام آليا فى غياب العقل (العاقل) ، والأمثلة الآلية عديدة. هذا فى المسائل المادية ، أما فى المسائل المعنوية والفكرية فوضع مثل هذه القواعد وصنع الآليات أمر غير يسير ؛ لأن عقل الإنسان ليس ثابتا ، والإنسان لم يُخلق فى مختبر ، حتى يكون تنظيم وتطوير فكره عن طريق المختبر ، أو بتطبيق ما يستنتج من مختبرات الحيوانات - كما يحدث فى مجال علم النفس

التجريبى – بل الإنسان كيان فريد بالغ المرونة والتعقيد معا ، وتطوره الدقيق المُقدّر لا يتوقف ولا يمر إلا من داخله ، وتلك خلاصة القضية وسر صعوبتها.

والمقصود بالتنظيم هنا هو حسن ترتيب الأشياء ذات العلاقة ، وذلك يقابل المصطلح الإنجليزى Organization ، ونقصد أيضا التحكم – ولو جزئيا – فى نشاط الأشياء Regulation ، فكلمة التنظيم فى اللغة العربية يمكن أن تشمل المعنيين. فالمطلوب حسن تنظيم وترقية محتويات العقل وتنظيم تعاملاته مع محيطه وعالمه ؛ لتكون أحكامه صحيحة ونشاطه أكثر جدوى. وتنظيم المعاملات لا يحجر على حرية العقل ولكن يحفظه من الشطط ، فللعقل أن يفكر فيما يشاء وكيف يشاء لكن لا يطرح (يُخرج) للناس إلا ما تم تمحيصه وتدقيقه ، ولا يأمر الجوارح إلا بالمباح فى شرعته التى تتطابق – فى النهاية – مع الفطرة التى فطر الله الناس عليها.

وبرغم أن التنظيم وظيفة عقلية فتأديتها تستلزم سلامة العقل حتى يمكن فهم الشيء ووضعه فى مكانه المناسب ، فلا ينتظر من المختل عقله أن ينظم أفكاره أو أموره ؛ لأن معظم الأمور عنده معكوسة أو مغلوطة. فالمجنون يرى الغائب حاضرا ويخاطبه باقتناع لا يقبل الشك ، ويرى أن الدمية تتكلم ، ويرى البعيد قريبا والخطر هينا والمستحيل ممكنا. هذا فى الحالات شديدة الجنون ومن المعروف أن هذا الصنف لا يُؤاخذ ولا حساب عليه ، وهو صادق مع نفسه ، أما حالات "جنون الوسط" أو "هبل الوسط" – وما أكثره – فهذا الذى يُهين

عقله بما يشبه الإصرار والتعمد والعناد ، فيَعتبر المستقيم أعوج ، ويرى السعادة فى طريق الانحراف ، وما لا يوافق هواه مرفوض ولو كان حكما إلهيا صريحا ، وتناقضه مع نفسه لا يخفى عليه. وهذه الدرجة من جنون السلوك - والتى شاعت فى المجتمعات - أخطر على المصير من جنون العقل ؛ لأن مجنون العقل قد رفع عنه القلم ، أما مجنون السلوك فعمله المشين محسوب عليه.

وهنا تجدر الإشارة إلى شدة تباين العقول ، كما فصلنا فى أكثر من موضع ، لذلك فأول ما نتوقعه هو أنه لا يوجد عقل آخر غير عقل المؤلف سيقتنع بكل ما جاء فى هذا الكتاب ، وأيضا لا نحسب أنه يوجد عقل يرفض كل ما جاء به. والفائدة المقصودة المرجوة إنما هى لفت انتباه القراء لقضية العقل وخطورتها. بعد ذلك نأمل أن يؤدى النشاط العقلى إلى مراجعة الفكر وحسن ترتيب الأمور لدى بعض العقول ونفض ما بها من أوهام وأكاذيب وضلالات وموروثات مهلكات.

والتنظيم يستحيل بدون عقل ، ومستوى ونوعية التنظيم تكون على شاكلة العقل الذى ينظم ويتجه نحو غايته ، فكل يعمل على شاكلته. والتنظيم فى الفهم الواعى ليس معناه تسوية الطوابير الطويلة! ورص الصفوف وترتيب المجموعات ، بل يعنى وضع الشىء فى أنسب مكان يحقق الفائدة ويدرأ المفسدة ، ولا يمكن تحقيق ذلك بدون نشاط عقلى بصير. ومن التنظيم أن نستبعد الأشياء الفاسدة ونقدم الأشياء الأكثر فائدة ، وبين هذا وذاك توزع بقية الأشياء

بشرط وضوح الغاية وسلامة الأساليب. إن الإنسان لا يستطيع أن يخلق ذرة ، لكنه يستطيع أن يخلق آيات الجمال المادى والمعنوى بجمال عقله وسمو فكره ؛ فالنشاط البشرى يسبقه فكر وخيال ويصاحبه عاطفة دافعة وتلك بعض المفردات العقلية.

ومن التنظيم أن نبدأ بتحديد الغاية والأهداف ، وبعد ذلك نبحث عن أفضل الخطط والوسائل لتحقيق الأهداف الموصلة للغاية. فالحركة بدون هدف عبث لا يليق بالعقلاء ولا يمكن أن تتوافق مع حركات منظومة الكون العملاق الذى يتحرك بنا نحو غاياته مكتسحا ما يتعارض مع نواميس حركته ، ومحتضنا من يتفهم معانيه وحكمة حركاته ، فما وجدنا القمر يعبث يوما وقد انقلب فجأة من هلال إلى بدر ، بل له منازل مقدرة ، ولم نر الشمس تطلع يوما من مغربها ؛ فحين يحدث ذلك يكون إيذانا بنهاية وفناء كل شىء. هذا كلام تنظيمى معروف ومتفق عليه منذ زمن ، ولكن تصرفاتنا تدل على غفلتنا عن وضعه موضع التنفيذ فى المجال الفكرى والتطبيقى. وحتى إن نشط البعض منا لبعض الوقت نتيجة بعض المؤثرات العابرة ، فسرعان ما يخمد هذا النشاط ويسترخى العقل رضا بالفكر القائم نتيجة الإلف الذى يركن العقل إليه جاهلا أنه لا يوجد شىء ساكن فى هذا الوجود. ولذلك فمطلوب دوما تغذية العقل بما يستجد من معلومات ووقائع وعقبات تعترض طريقه وعلى أساسها يضبط العقل مؤشر حركته نحو غايته، ويحكم درجة ومعدلات النشاط اللازمة للحفاظ على ثبات الخطى. فالعقل هو البوصلة والترمومتر فى الأمور التى تركت لاختيار الإنسان

وتوفيق أمور حياته وفقا للوقائع التى لا تكف عن التجدد والطرح ، وذلك فى إطار الخطوط العريضة التى أرادها رب العالمين. ومن كرمه وتيسيره – سبحانه وتعالى – أن جعل الخطوط الحمراء متباعدة جدا بما يسمح بتنوع الفكر الصحيح ، وحسن وأدب الاختلاف ، والتجديد وقبول طيب الجديد ، بلا تنطع ولا تفسخ.

التنظيم كمعنى لا يقوم بدون حدود ومعالم هادية ، إنما التنظيم يتبع التخطيط الذى يحدد الحدود الفاصلة بين الأشياء والسبل الموصلة للغايات ، فى هذا الإطار يكون التنظيم المادى والفكرى. ويشعر الإنسان بالحاجة إلى التنظيم المادى حين يجد مسارات الوصول للأغراض معقدة ومتشابكة ومرتبكة ومكلفة فيتنبه لوجود خلل ما ، لكن فى المجال الفكرى فيندر شعور الإنسان بذلك الخلل ؛ بسبب المرونة الطبيعية الفائقة والبدائل المتاحة فى مسارات العقل ، وسبحان الذى خلق. وحين يشعر المفكر بالحاجة للتنظيم الفكرى تجده يلجأ لمراجعة وتقليب مافى ذهنه من أفكار ، وكثيرا ما يطرح بعضها على الورق – كذاكرة جانبية – ثم يبدأ فى ترتيبها وتنظيمها وتنقيحها وإعادة التنظيم ثم تنظيم التنظيم ، فنراها بعد ذلك وقد تهذبت وانتظمت فى مقال أو قصيدة أو كتاب أو خطة أو معادلات ، ومعظمها نضح منظم لبعض ما فى ذلك الوعاء الحى ألا وهو العقل. ولذلك فمن يجهل الكتابة يلزمه بذل جهد مضاعف فى ترتيب أفكاره نظرا لمحدودية الذاكرة ، وفى نفس الوقت يكون أكثر اشتياقا لتلقى المعلومات والأفكار المنظمة.

أساسات التنظيم

التنظيم – فى تصورنا – يكون للواقع المادى وللحال المعنوى أيضا. وأساس التنظيم المادى يرتكز على المبنى فى أبعاد المكان والزمان. وبالنسبة للمكان فإننا نتصوره ثلاثى الأبعاد (3D) ، كما ذكرنا قبلا فى فصل الوعى والإدراك ، ونتصرف على هذا الأساس ، والله أعلم بحقيقته. وبدون علامة تحدد نقطة أصل (Reference piont) لتصورنا للنظام ثلاثى الأبعاد ولحركة الزمن يصعب علينا هذا التصور. فالكون بدون علامات – كالنجوم والكواكب – لا يمكن أن نتصوره أو نهتدى لأى شىء يتعلق به ، وكثيرا ما يرد عفويا فى أدبيات الفلك مصطلحات مثل "نشأة الكون" و "نهاية الكون" مع العجز المطلق عن تصور ماهية هذا الكون ، ومعنى ما قبل النشأة أو ما بعد النهاية ، فهذه الأشياء مستحيلة على تصورنا وفوق طاقة عقولنا ؛ لأن العلامات التى ندرك بها ونتصور على أساسها تكون منعدمة قبل البداية ، ولكننا هكذا نفكر – بخبرتنا الموروثة والتقليدية – على أساس أن لكل شىء بداية ونهاية!

ومجرد اختفاء النجوم يعنى انهيار بنية الكون – الدنيوى بكواكبه وأقمارها – وإطباق الظلام الحالك على الدّنيا وانعدام الزمان والمكان ، ويصف علام الغيوب ذلك الانقلاب المذهل فى الكون – **يوم تُبدل الأرض غير الأرض والسماوات** – فى الآيات الأُول من سورة المرسلات ، فيقول تبارك اسمه: ﴿... **فَإِذا النُّجُومُ طُمِسَتْ ، وَإِذَا السَّمَآءُ فُرِجَتْ ، وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَت ،**

...﴾ ، وتلك الحالة الرهيبة يتعذر – على العقل البشرى وحده – تصورها ، ولولا الرسل ما خطرت لنا على بال ، وما زال قبول خبرها يستعصى على عقول "عتاولة" الإلحاد.

وغفر الله لمن قال: لقد كنت فى فترة المراهقة العلمية والفكرية أتوقف عند قوله سبحانه وتعالى ، فى الآية 12 من سورة فصلت ﴿**وَزَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحَفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ**﴾ ، وأقول فى نفسى: هل معقول كل هذه المليارات من النجوم مصابيح! ماذا تضئ وماذا تحفظ! لم أكن أتصور شدة ظلام **السَّمَاء الدُّنْيَا** ولا علاقات النجوم بالكواكب فى بنية السماء الدّنيا (رقم 1) ، وأخيرا فهمت . تباركت ربى وتعاليت.

هذا بالنسبة للسماء الدنيا وما فيها من نجوم وكواكب واقمار وغبار كونى وظلمات ، أما بالنسبة للسماوات العُلى فالأمر يختلف تماما ولا يمكن إدراكه بأى وسائل استشعار أو تصور دنيوى ، إنه عالم النور ، ولا نعرف عنه شيء إلا بالإخبار الصادق.

ونعود للدّنيا ، فنظرا لوفرة ﴿**العلامات**﴾ على سطح الأرض وفى السماء كما ألمح ربنا فى الآيتين 15و 16 من سورة النحل ، ﴿**وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ، وَعَلامَات وَبِالنَّجْمِ هُمْ**

يهْتَدُونَ﴾ ، فقد سَهُل على أجدادنا وعلينا - بالتالى - نشُوء التصور والإدراك وممارسة التفكير المتعلق بالأنشطة المادية. فالنجوم علامات مادية للهداية فى السماء ، والتضاريس والعلامات الطبيعية والصناعية هادية على الأرض. وعلى ذلك يصبح التنظيم المادى للمكان من أبسط عمليات التنظيم وأوضحها للعقل والحواس ، على أساس التصور ثلاثى الأبعاد. والمتأمل لتحركات الأعمى يلاحظ أنه دوما يحتاج لعلامات (يحفظها) لكى يتحرك للوجهة الصحيحة بأمان ، ونراه يتحرك فى مسكنه معتمدا على نفسه - دون الحاجة لمرشد - أى على ما فى ذاكرته من تصورات عن مختلف الأماكن. لكن إذا أخذناه لمنطقة جديدة عليه نجده عاجزا تماما عن الحركة بمفرده ؛ لأن العلامات التى فى ذاكرته لا تصلح فى المكان الجديد ، مهما كان عبقريا وشديد الذكاء ؛ فالذكاء وحده لا يكفى بدون معالم هادية.

وبالنسبة للتنظيم الزمانى فقد تفضل ربنا بوضع أسسه **وعلاماته** الهادية ، فجعل الحركة المُركبة للأرض تصنع الحياة الطبيعية على سطحها والتوقيتات الزمانية لنشاطات سكانها ، وذلك بدورة الليل والنهار يوميا ، ودورة الفصول الأربعة كل عام ، أما الدورة الوسطى (الشهرية) فيصنعها القمر ، وهى تدور لتتقلب فى العام كله وتصنع النشاطات الحيوية التى لا يتسع المجال للتعرض لها. والآيات القرآنية التى تشير لجوانب هذا الإعجاز عددها يقارب المئة أو يزيد ، فالخالق صاحب الفضل يعرض -على عقول عباده - بعض عجائب صنعه وحِكَم تنظيمه ، سبحانه وتعالى.

ولتنظيم حياتنا – زمنيا – يقول ربنا ، عز وجل: ﴿ **فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ الَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ**﴾ الآية 96 – سورة الأنعام. والآية 189 من سورة البقرة تتعرض للهدف التنظيمى للتوقيت ﴿**يَسْئَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِ ...**﴾. تلك هى المعالم الزمانية الهادية التى تُطلق الوعى بدايةً ، وبدونها يتعذر فهم معنى أو غرض أو أهمية التوقيت ، أى يتعذر نشأة الوعى بالزمان. وبعد ذلك فقد هدى الله العقل البشرى لتدقيق التقويم الزمنى إلى أدق كسور الثانية.

وهكذا قبل أن نُخلق أنعم علينا ربنا **بالعلامات** كثوابت وأساسيات التصور والتنظيم المكانى والزمانى (الزمكانى) ، لأنه كان من المستحيل أن نبدأ التصور من لا شىء بدون أساس محسوس ، وبعد ذلك تُرك للعقول الفرصة لتفكر وتدقق حسب حاجة التطور إلى ما شاء الله.

ظلام العقل

كما يحتاج الوعى المادى لعلامات فنفس الشىء بالنسبة للتنظيم المعنوى والوظيفى (العقلى) ، فلم يكن من الممكن أن نبدأ الوعى المعنوى بدون أساس معرفى يصلنا ؛ لنعرف من نحن ، وما حكايتنا ووظيفتنا وعلاقتنا بهذا الكون ومسميات الأشياء من حولنا ، ودورنا فى الحياة ومصيرنا بعدها! كل هذه المعلومات يستحيل أن نتوصل إليها بأنفسنا ؛ لأنها فوق طاقة العقل.

والأساسات المعنوية يلزمها أيضا علامات لكنها عقلية ، كالأسماء والعلامات المعنوية التى هى من أساسات الذاكرة ، فبدون علامات من المستحيل وجود مسميات ، وحين نستشعر شيئا لا نعرفه نضطر إلى تسميته أو ربطه بمسمى نعرفه ، عندئذ نجد له مكانا مستقرا فى الذاكرة. وقد بين الذكر الحكيم أن الله – عز وجل – حين خلق جدنا آدم – عليه السلام – علمه الأسماء اللازمة كلها ؛ لتأسيس الذاكرة وتمكين الوعى وإضاءة العقل.

.

وكما أن للتنظم الزمكانى – الملموس حسيا والواضح نسبيا – معالم هادية كما أوضحنا قبلا ، فالتنظيم الفكرى هو الأشد إحتياجا للمعالم الهادية ؛ لأنه لا يدرك بالحواس ، ولذلك فهو يحتاج إلى تبيين ، فكانت رسالات الهدى والنور ؛ لتبين للناس الآيات العقلية ، وما اختلفوا فيه ، وما اختلط عليهم ، وقد ورد لفظ "ب ى ن " ومشتقاته مئآت المرات فى كتاب الله ، وفى مواضع كثيرة جاء مقرونا بالنشاط العقلى ، مثل: **تعقلون ، يوقنون ، يعلمون ، يتقون ، تتفكرون ، يتذكرون ، تهتدون و تشكرون.**

هذا هو المجال الذى يحتاج إلى تبيين وليس المجال المادى ، فالعقل الذى ليس لديه علامات هداية فهو يتخبط فى الظلمات ويحتاج حتما لمن يأخذ بيده ليخرجه من الظلمات إلى النور بأن يبين له الآيات. ويقول ربنا – عز وجل – فى مطلع سورة إبراهيم ، عليه السلام: ﴿... **كِتَابٌ أَنزَلْنَاه إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ**

﴿الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾. بدون معالم الهدى تجد أئمة الكفر والضلال يتخبطون ويترددون ولا تقر لهم عين ، مهما تبجحوا وصرخوا ، ويذهب الشيطان بهم كل مذهب ، وفعلا تظلم الدنيا فى أعينهم.

وسط هذه الظلمات تخبط الناس من مختلف الأجناس ، فعبدوا البشر والحجر والبقر والشمس والقمر ؛ فالمادة المظلمة هى التى تسيطر على عقولهم. فلو أضيئت عقولهم بالمصابيح المعنوية كالتى تقول: **لا إله إلا الله ، ليس كمثله شيء ، لا تدركه الأبصار ، هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى.**

سبح لله مافى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم ، هو الرزاق ، الملك الحق المبين. لو أنهم أيقنوا ذلك لأبصروا وما ضلوا.

ومن تسيطر الماديات على فكره وعقله وتشغله الدنيا بزينتها يندر أن يكون صاحب عقل راجح ، وللقارئ أن يتأمل أشهر أثرياء العالم والتاريخ ، ولسوف يستنتج أن النور والمادة يكون أحدهما على حساب الآخر ، كما هو معروف بين المادة والطاقة فى مجال الفيزياء. والغرق فى أوحال المادة مهلك ، وقد جاء فى الحديث المتفق عليه عن عمرو بن عوف الأنصارى رضى الله عنه ، قوله صلى الله عليه وسلم: "... *فوالله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم ، فتنافسوها كما تنافسوها ، فتهلككم كما أهلكتهم*"

توارد الخواطر

حين يترك العقل ليعمل بدرجة نشاط هادئة فى حالة استرخاء – دون التركيز على موضوع معين – تتوارد الخواطر بتسلسل متشعب (غير منظم) ناعم الحركة ولكنه ذو دلالات ، وهذا التسسل قد ينقطع لحظيا أو مؤقتا بسبب طارىء (خارجى) لكنه يعود للتواصل حين تتاح أول فرصة ، كعودة الهدوء وسكون الجوارح واحتجاب المنغصات. وتشعب الخواطر يمكن اعتباره اتصالا أو تواصلا بين رموز الأشياء والمعانى لدى العقل ، ويلعب كل من الرمز وأشباهه ومتعلقاته أدورا "ترجمانية" فى توارد الخواطر. فحين يتأمل الإنسان قلماً فيمكن أن يتطرق نشاط عقله إلى دقة صنعه – إن كان المتأمل ذا علاقة بالصناعة – ومن الصناعة يتطرق إلى خواطر شتى ، أو بالقلم يتذكر الكتابة –

إن كان من المهتمين بها - ومنها تتطرق خواطره إلى أنواع من الكتابات والكتب ... وهكذا. وكما هو موضح فى شكل (1) فما دام العقل يعمل فالرمز يسوق خاطرة ، وبسبب الخاطرة تستدعى رموز - ذات صلة - من الذاكرة إلى بؤرة الشعور أو الذهن الحاضر أو ما يسمى بالذاكرة العاملة ، فيصبح مسار النشاط التفكيرى فى لحظة ما كالمسار الموضح بالخط المنكسر السميك الذى يمر بالعديد من العقد (التفريعات) من النقطة 1 إلى النقطة 2 مثلا.

والمقصود بالعقدة هنا هو التقاء عدة مسارات كالموضحة بالرسم (شكل 1) ونعتبرها نقطة تلتقى فيها أو تتقاطع عندها مجالات عدة رموز. والمعلومة فى العقل يبدو أنها لا توجد مستقلة بل مرتبطة بالعديد من المعلومات ذات الصلة ، فحين يحاول الإنسان تذكر معلومة ما (X) ولا تسعفه،الذاكرة فلو تصادف فى تلك الأثناء وتذكر أو التقط معلومة (Y) ذات صلة بالمعلومة المطلوبة (X) فإن المعلومة المطلوبة تظهر وكأنها سحبت من بئر عميق ، أو ما سمى بالذاكرة طويلة الأمد. ومثال ذلك فقد يتعذر على الإنسان تذكر اسم زميل قديم ولكن حين يمر قريبا من المنطقة التى كان يسكن بها ذلك الزميل - مثلا - عندئذ يتذكر الإنسان الاسم كاملا بدون بذل جهد ذهنى يذكر.

وفى حالة وجود عقدة شديدة الأثر - فى النفس - نجد التفكير يدور من موقع العقدة ثم يعود إليها ، ويتحرك فى مسار مختلف حسب توارد الخواطر ثم يعود

لنفس نقطة العقدة رغم اختلاف المسارات طولا وشكلا. ويستمر الدوران مرتبطا بنفس العقدة ما لم يستجد مؤثر قوى يجذب مسار الخواطر عن مجال العقدة مؤقتا ؛ ليبدأ النشاط مساره فى مجال المؤثر الجديد ، ثم يعود بعد فترة لمجال العقدة الأولى ، وقد يستجد مؤثر جديد وهكذا.

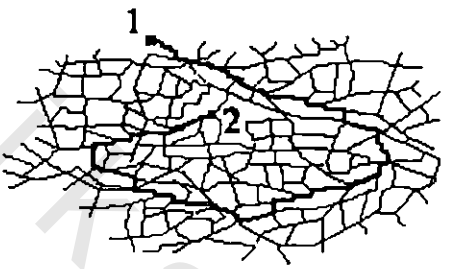

شكل (1). نمذجة تصور سير الخواطر.

ونرى حركة الخواطر على طول المسار المتعرج تستجيب تلقائيا لما تلتقطه الحواس من الخارج لبدء مسار جديد أو تغيير مسار قائم ، فقد تلتقط العين خطوطا غير منتظمة على سطح أحد الأحجار فتبدو فى نظره وكأنها تشبة قطة أو كلبا فتكون تلك بداية عقدة فرعية ومن ثم تتوارد ذكرياته عن ذلك الحيوان وقصته مع بعض المعارف من الناس ، ومن هؤلاء المعارف ينتقل الإنسان دون أن يشعر إلى قضايا تتعلق بهم وهكذا ، ويبدو التفكير كتيار يسرى فى شبكة عديدة التقاطعات وفى غاية المرونة ولكن تدل على اتصال المعلومات ببعضها

بشكل أو بآخر ، وتفصيل ذلك التشابك (Wiring) مجاله فى دراسات المخ والأعصاب.

والعقدة قد تتبلور مرتبطة بفكرة أو شهوة أو صدمة أو أزمة أو غير ذلك. وعلامات الاستفهام من أبرز محركات العقل التى تدفع الخواطر فى المسارات المتعلقة بموضوعها، وعلامات الاستفهام النابعة من الداخل تكون غالبا أقوى تأثيرا من العلامات المطروحة من الخارج.

بين النوم واليقظة

تبين للباحثين – فى مختبرات النوم حديثا – أن النوم هو استرخاء لحواس الجسم وللجهاز الحركى فقط ، أى للنظم التى يتعامل معها العقل بوضوح ملحوظ ؛ لأنه قائدها. أما باقى مكونات الجسم ، كالجهاز التنفسى والجهاز الدورى والجهاز الهضمى والجهاز العصبى فجميعها تدار بواسطة المخ الذى يعمل مدى الحياة ، وهذه الأجهزة تعمل أثناء النوم وأثناء اليقظة مع اختلاف فى معدلات النشاط فقط. وجدير بالذكر أن العقل حال يقظته يمكن أن يمارس سيطرة محدودة على بعض الأجهزة المذكورة ، كما يحدث فى رياضة "اليوجا" مثلا ، وتجرى منذ سنوات محاولات هندسية–طبية لتدعيم هذه السيطرة المحدودة بواسطة ما يسمى "بالتغذية الخلفية الحيوية Biofeed back". والمصطلح الأخير مقتبس (مستعار) من مجال التحكم الآلى. وتتلخص فكرته فى معرفة

الشخص بحال نشاط أحد أجهزته – كضغط الدم مثلا – وتشجيعه على محاولة خفضه ، والأجهزة المتصلة بالشخص توضح له أثر المحاولات ، وبالتمرين والإصرار ومراقبة النتائج يمكن تحقيق بعض السيطرة.

وبالنسبة للمخ فعن طريق التسجيل الكهربى لنشاطه يمكن تمييز عدة مراحل يمر بها النائم ، ويمكن بسهولة تمييز مرحلة الأحلام. وأثناء النوم تكاد تنعدم علامات الاستفهام المطروحة على العقل من الخارج ، فيبدأ النشاط مرتكزا على مخزون الداخل وخصوصا ما تم تنشيطه قبيل النوم. ويؤيد هذه النظرة ما يحدث فى الأحلام ، فكثيرا ما يذكر أمام الإنسان أحد الأخبار الهامة المتعلقة بشخص ما ثم ينام ، فيرى فى نومه ذلك الشخص فى موقف ما قد يكون متعلقا بالخبر أو غير متعلق به فى الغالب ؛ نتيجة التفريعات العديدة التى يمكن أن تبعد عن مجال الخبر. وللغرائز تأثير فى توارد الخواطر أثناء اليقظة وأثناء النوم ويستطيع القارىء أن يتذكر من ذلك الكثير ، فالعطشان يحلم فى نومه بأنه يشرب ، والجائع يحلم بأنه يأكل ، وأقارب المتوفى يرونه بكثرة فى نومهم خصوصا فى الأيام القريبة من الوفاة – نتيجة الانشغال بالموضوع – ويقل المعدل بعد ذلك حتى يكاد يتلاشى بمرور الوقت ؛ بسبب طغيان موضوعات تستجد على النشاط العقلى فتتكون العقد الجديدة القوية التأثير على مسار الخواطر. ولذلك يجب الحذر فى تفسير الأحلام لأن معظمها مجرد توارد خواطر فقط لا غير. وما أحلام اليقظة إلا توارد خواطر لكنها تكون على هيئة أمانى تظل تتكرر حتى تكتسب نوعا من الحضور الوهمى.

وهذا التحليل لا ينفى وجود الرؤيا الصالحة التى تتعدى حدود العقل وتشير إلى أحداث ستقع مستقبلا وتتحقق كفلق الصبح ، والأمثلة على ذلك عديدة لكنها خارج مجال موضوعنا.

وتحديد الغاية والأهداف والاهتمام بتحقيقها ينظم ويطور توارد الخواطر الارتجالية إلى أفكار ثم يخضع الأفكار للتقويم والمراجعة والاختبار. وبذلك يتحول النشاط العقلى من نشاط متسكع إلى نشاط مُصوب نحو هدف مفيد.

وميض العقل

العقل لديه المقدرة الذاتية - بفضل الله - على قبول المعلومة الجديدة ، وإعادة ترتيب معلوماته وإفساح حيز للمعلومة الجديدة - بين المعلومات الموجودة بالمخ - لتسكن فيه ، وبمرور الوقت تتفاعل المعلومة الجديدة مع المعلومات التى سبقتها إلى العقل ، ونتيجة هذا التفاعل تصبح المعلومة - بعد مدة - مختلفة عن حقيقتها وقت وصولها للمخ ؛ وذلك لتأثرها بخبرة العقل ومفردات ورموز لغته ، وذلك أحد أسباب الخطأ أو الحيود. والمقصود بالمعلومة الجديدة هى المعلومة التى وصلت للعقل مؤخرا - ولم تكن معروفة له من قبل - وليست المعلومة التى اكتشفها العلم الحديث.

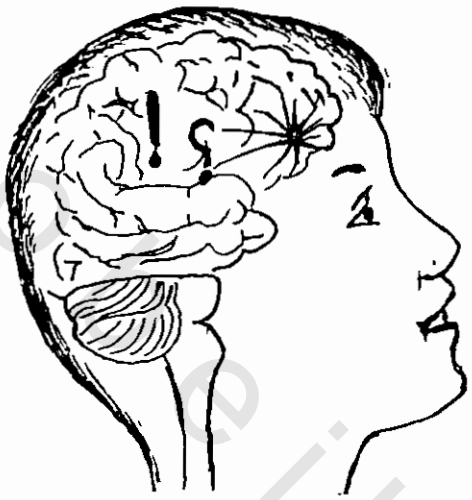

وحين يشغل الإنسان نفسه بمسألة ما ، وفى لحظة تفكر يحدث أن تتفاعل معلومات العقل مع المعلومة (أو المعلومات) الحديثة أو الجديدة ، فيتولد عن ذلك فكرة جديدة ، وفى هذه اللحظة يحدث بالعقل ما يشبه الومضة الخاطفة (Flash) ، وصدق من قال : "العلم نور".

وحينما تكون الومضة شديدة فقد تخطف العقل لحظيا عن الوجود فيصيح انفعالا بها ، ومثال ذلك صرخة "أرشميدس" حين قال : " وجدتها وجدتها ....".

ويصعب – على المؤلف – تصور إمكانية حدوث ذلك الوميض للآلات فى مجال ما يسمى بالذكاء الإصطناعى (Artificial intelligence) رغم الجهود المبذولة فى هذا الإتجاه ؛ نظرا لأن هذه العمليةَ تتم بتفاعل غير فيزيائى ولا حسابى (noncomputable) بين أشياء لا تحسب ، فى حين أن نشاط الكمبيوتر وأشباهه أساسه حسابى .

وحينما تكون مساعدات التفاعل محدودة فيشعر الإنسان بما يشبه االلمعان الخفيف المتقطع لعدة مرات ، ويتهيأ له كأنه يكاد يقبض على شيء فى الهواء ، ومن يتمكن اصطياد الفكرة ، أو إدراك المعنى بسرعة يوصف بأنه " ألمعى" ، أى متوقد الذهن. وهذا نبع من الداخل ، لكنه لا ينشأ قبل أن يتهيأ الداخل ويُزود بالمعلومات ذات العلاقة وينشط الذهن.

وهكذا يتم الابتكار والإبداع الخلاق – بفضل ا لله – عن طريق التفكر ، فى مخلوقات ا لله ، الذى دعانا إليه الحديث الشريف عدة مرات. ومثال ذلك ما ذكره أبو نعيم فى الحلية عن ابن عباس – رضى ا لله عنهما – قوله صلى ا لله عليه وسلم : " *تفكروا فى خلق ا لله ، ولا تفكروا فى ا لله*" ؛ لأنه سبحانه وتعالى فوق طاقة إدراك المخلوق. أما فى محكم التنزيل فقد وردت الدعوة للتفكر 19 مرة ، ضمن لفظى : تتفكرون و يتفكرون.

والفكرة إن لم يتم متابعتها أو تسجيلها فيمكن أن تهرب (تختفى) ، وإعادة اصطيادها وتذكرها يحتاج لجهد جديد.

وقدرة العقل على حفظ المعلومات واسترجاعها محدودة بسعة الذاكرة – فى حدود مليون بليون معلومة – كما ذكرنا من قبل. وهذه المشكلة وكيفية معالجتها أشار إليها من لم يتعلم الكتابة – صلى ا لله عليه وسلم – فى الحديث الشريف الذى رواه الطبرانى فى الكبير ، والحاكم فى مستدركه ، عن ابن عمر

رضى الله عنهما ، إذ يقول : " *قيدوا العلم بالكتاب* " ؛ لأن التقييد فى المخ له حدود وسيفنى المخ بعد حين. والآن تعتبر ذاكرة الحاسب مساحة احتياطية ضخمة تخدم ذاكرة العقل البشرى وبسرعة هائلة.

تنظيم نشاط العقل

فى نطاق الكيان البشرى نرى العقل هو صاحب القوامة على بقية وحدات الجسم. وقد شاءت حكمة العليم الحكيم أن يكون العقل بعيدا نسبيا عن اضطرابات الأعضاء الحركية ومرتبطا مركزيا - على ما يبدو - بأعلى موضع فى جسم الإنسان وهو المخ. والعقل مزود بنعمة القدرة على تنظيم ذاته ومعلوماته ، لكن وفق تصوره هو ، ولا توجد وحدة أخرى فى مكونات الكيان البشرى تمتلك ميزة التنظيم الذاتى أو التعدى إلى تنظيم العقل. ومقدرة العقل على التنظيم نوعية وتتوقف على مدى نشاط العقل ، وعلى محتوياته. فالعقل المقفل الكسول الجاهل أقل العقول مقدرة على التنظيم ، وفى المقابل نجد العقل المتفتح النشط بعلمه ودرايته أقدر العقول على التنظيم.

وبما أن العقل يستقبل طول فترة اليقظة وأحيانا أثناء النوم ، فالتنظيم يجب أن يستمر طوال وقت اليقظة. ونظرا للتباين الشديد بين محتويات العقول ، فلا يوجد نمط تنظيمى معين يمكن طرحه لتنظيم العقل لكل الناس ، لكن الحد الأدنى المطلوب يتمثل فيما يلى:

- تحديد الغاية والأهداف المرحلية الموصلة إليها.
- التدقيق فى الأشياء لتمييز الخبيث من الطيب.
- المراجعة المستمرة لمحتويات العقل لطرد الأوهام والأباطيل.
- التثبت مما يظن أنه حقائق.
- تزويد العقل بالجديد والصحيح من المعلومات باستمرار.
- مراجعة الموروثات ؛ لأن الأفكار الموروثة وإن كانت تصلح للتنظيم بالأمس فقد لا تصلح لإعادة التنظيم اللازم وفق مستجدات اليوم.
- ترتيب الحقائق والمعلومات حسب أهميتها العقلية وفاعليتها فى تحقيق الغاية.

وجدير بالذكر أن العمليات العقلية المذكورة آنفا ليست مرتبة ترتيبا زمنيا بل هى مجرد محاولة لتمييز هذه العمليات عن بعضها، والتداخل الزمنى والتوازى بينها موجود. والتفكير العقلى المتجرد - وليس الاستسلام الغريزى - من أجدى وسائل تنقية العقل ؛ فأثناء التفكير الحيادى العميق يحدث تقويم تلقائى ومراجعة للعديد من الأمور وتبرز معان جديدة ، وتكرار هذا التقويم والمراجعة يقلقل الأوهام تمهيدا لطردها ويبرز قيمة الحقائق ويساهم فى ترسيخها ونمو أفرعها الطيبة.

بوابات العقول

يوجد للعقل مداخل حسية أبرزها السمع والبصر ، وخلف هذه المداخل توجد بوابات – لا مادية – العقل. وهذه البوابات على أصناف ولها أحوال ونعرض منها أربعة أنواع مميزة وهى:

1. العقل المغلق ، وهو المحشو بمعتقدات معينة أدخلت إليه بالتلقين قبل أن يعقل ويبلغ مرحلة النضج العقلى ، وهذه المعتقدات تحفظ بلفائفها وحالتها وبترتيب دخولها ، وتظل محفوظة ومقيدة بقرار مكين ولا تقبل المناقشة ويخشى عليها من التعرض للضوء الفكرى أو الآراء المغايرة. ولا تفتح أقفال مثل هذا العقل إلا بمفاتيح معينة وما عداها من المفاتيح لا يستجيب لها ذلك العقل ؛ لأنه مكبل ولا يملك إرادته وليست لديه الشجاعة التى تمكنه من فتح تلك اللفائف ، ولذلك يتمسك هذا العقل ببقاء الحال على ما هو عليه ، ولا مانع لديه من الحوار والمراوغة دفاعا عن حوصلة اللفائف. وحامل المفاتيح إياها يستطيع الدخول لذلك العقل فى أى وقت وإضافة واستبدال وتعديل وضع وإعادة ترتيب اللفائف بينما صاحب العقل مستسلم تماما. ولذلك فهذا العقل المقفل لا يمكن إعادة تنظيمه إلا فى حضور أحد حاملى مفاتيح الأقفال. هذا الصنف من العقول هو عبد للموروث أسير للعادة ربيب للتقليد. فحال أربابه كمن يقولون : إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ، ومصطلح العقل المقفل ليس من اختراع الفكر

البشرى ولكنه من علم من خلق – سبحانه جـل شـأنه – إذ يقـول: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا – الآيـة 24 – سـورة محمـد ، صلى الله عليه وسلم.

2. عقل ذاتى التحكم ، أى يملك إرادته ويعرف غايته ، ويستطيع التعـامل بحرية ومرونة مع محتويات ذاكرته ، ولديه الموازين والمقاييس ووسـائل الفـرز ومعالجة الأمور ، ومستعد للتعامل مع أى طارق يطـرق بابـه فـى أى وقـت ومن أى اتجاه بدون شروط مسبقة أو قيود تعوق نشاطه أو تحد من حيويته.

3. عقل فوضوى تابع سهل الاستهواء ... كأنه مسرح بلا أبواب يقتحمه من يشاء ، تنعق فيه البوم وتسرح فيه الهوام ، عديم الغاية يهيم فى كل واد ويتبع كل نـاعق ، شـيمته الرقـص ويسـير مـن نقـص إلى نقـص ، معـروض للإيجار لأى غرض فى عصر المجون. هذا الصنف مـن العقـول عديـم المبـدأ ويمكن أن يفرط فى أى شىء وفى كل شىء.

4. عقل مـوارب ضبـابى مشـوش حـائر ، الأمـور لديـه مختلطـة غـافل عـن الحقيقة بسبب تداخل الصـواب والخطأ فـى نظـره. وهـذا الصنـف كسـول فكريا ولا يدقق فيمـا يسـتقبل وهـو محـدود الرؤيـة ضيـق الأفـق ، يستسـلم للحيرة ، قليل الحسم ، بطىء الخَطْو والاستجابة.

الترتيب

قضايا الحياة وموضوعاتها لا نهائية ولا يوجد لها حلول سحرية ، ولا يستطيع العقل أن يتعامل مع عدد كبير من القضايا والمعلومات فى نفس الوقت ؛ نظرا لمحدودية طاقة العقل. وكلما زاد عدد القضايا التى تشغل الذهن كلما تسطح التفكير (أفقيا) وقلت فرصة الوصول إلى رأى صائب حولها ، لذلك يلزم تقليل عدد القضايا موضع الدراسة حتى يتيسر بلورتها وحسن معالجتها ، فنبدأ بأولها وبعد ذلك يمكن أن نتناول القضية التالية فى الأهمية. بالعلم والتفكير والتدبر يمكن طرد الكثير من الأوهام والأباطيل من العقل وإخلاء مكان أوسع للحقائق حسب أهميتها ، ومناقشة القضايا الجادة والخطيرة أولا، ثم الأولى فالأولى.

فى تدوين الإنسان للبيانات والمعلومات وما يتعلق بالأشياء يلزم اتباع ترتيب معين – حسب ظروف كل حالة – فنجد الترتيب الزمنى أو الأبجدى أو الرقمى ، أو حسب الأهمية أو الثقل أو الخطورة .... إلى آخر التصانيف المعروفة. ولكن فى ذاكرة العقل لا نعرف (أو لا يعرف المؤلف) بأى ترتيب تُختزن الأشياء ، بل قد يكون معنى الترتيب فى غاية السذاجة بالنسبة للكيفية المعجزة التى تتم بها معالجة المعلومات فى العقل. ولكن فى إطار التحليل اللازم فى هذا الكتاب يلزم تصور وجود أولويات للقضايا التى تشغل العقل. وهذا التصور (الترتيبى) يقع فى الغالب فى منطقة ما بين الصواب والخطأ ولكن متابعته ومراجعته من الممكن أن تقربه من الصواب.

وبداية فالقضية التى لا يتضمن العقل معلومات عنها - صحيحة كانت أم خاطئة - يمكن أن نعتبرها غائبة تماما بالنسبة للعقل ولا تمثل أى وجود فيه. مثال ذلك مدى سمية نوع ما من الدواء أو نسبة العناصر الثقيلة فى بعض الأطعمة أو المشروبات بالنسبة للطفل أو الصبى أو حتى بعض البالغين الأميين. وذلك هو قاع الترتيب إن صح هذا المصطلح بالنسبة للنظام العقلى ، وتتصاعد قيم القضايا بالنسبة لعقل ما حسب كم وكيف معلوماته عنها ، وفى قمة الترتيب تأتى القضايا الشخصية بتلقائية فطرية وبسبب معايشتها وبالتالى كثرة حضور المعلومات الخاصة بها ولدواعى حفظ الحياة وحب النفس ، ولا يجب المغالاة فى ذلك. ويتأثر هذا الترتيب بمدى سخونة أو نشاط القضايا فى العقل ، فمن الممكن أن تشغل القضية حيزا ملموسا فى العقل نتيجة نشاط ما فى الماضى ولكنها الآن نائمة أو ساكنة أو خاملة بسبب خمودها وانقطاع أخبارها فى محيط أو فى مجتمع الإنسان. وقد توجد موضوعات فى غاية التفاهة ولكن تسليط الأضواء عليها يجعلها طافية فوق باقى الموضوعات. هذا فضلا عن الخداع الناتج عن البعد والقرب ، فحدث اليوم - مثلا - يبدو أهم من حدث مماثل حدث منذ عامين أو من المتوقع حدوثه بعد عشرة أعوام ، رغم أن الحقيقة قد تكون عكس ذلك.

مما سبق يتبين أن أهمية الموضوعات (أو القضايا) فى نظر العقل تختلف كثيرا عن أهميتها أو خطورتها الفعلية ومدى تأثيرها على الإنسان وعلى مصيره ، وهذا نوع من الغفلة تتباين خطورته من حالة لأخرى. فأهمية القضية فى نظر

الإنسان تتوقف على مدى إحساسه بها بغض النظر عن مدى تأثيرها الفعلى عليه ، ولذلك فمطلوب من العاقل أن يبذل قصارى جهده الفكرى ليزن القضايا من حيث أهميتها الفعلية ، ولن يتمكن من ذلك حتى يخرج شخصه من القضية ويتخلص من ضغطها على أعصابه بقدر الإمكان. وبذل مثل هذا المجهود العقلى يتكاسل عنه الكثير من البشر ، خصوصا فى عصر المعلبات الفكرية والترف العقلى ، حيث يريد الإنسان الأشياء حاضرة جاهزة مزينة ويُفضل التوصيل للمنزل ، أو توكيل من ينوب عنه حتى فى التفكير.

الصدق

الصدق نتاج حب الحقيقة والإخلاص لها ، وقديما قالوا : "الصدق منج" ، فالصدق يهدى إلى الحق ويورث قرة العين ، وهو دليل على الثقة با لله ثم بالنفس. والكذاب يظل يكذب حتى يحدث له تغير نوعى مستقر و يكتب عند الله كذابا ، ويصل به الأمر لدرجة أن يُصدّق كذبه ، فيكون قد خدع نفسه وعلى الباغى تدور الدوائر. وعقل الكذاب يتعذر تنظيمه لأنه لا يستقر على حال والأمور فيه مختلطة.

العقل البشرى يمكن أن يُخدع بالمعلومات الزائفة إلى حين ، لكن لا يمكن أن يقتنع بالإكراه. الجسد يمكن أن يُسجن ، ولكن عقل السجين يمكن أن يحلق فى عنان السماء ، ويناجى رب الأرض والسموات ويقفز من الشمس إلى القمر

إلى الجنان أسرع من الضوء ، وينتقل من الماضى عبر الحاضر إلى المستقبل جيئة وذهابا. الجوارح فى نشاطها لا تحتاج لأكثر من صدور الأمر ، أما العقل السليم فلا يقتنع بدون برهان ، قد يكون البرهان واهيا فى نظر البعض ولكنه فى نظر البعض الآخر برهان.

والمستمع عادة لا يملك وسيلة للتفتيش على مدى صدق المتكلم أو صاحب الدعوة ، ولكنه ببساطة يعتبر أن حال المتكلم أول برهان. فمثلا ، حين يعرف الجند أن موقع القائد فى نقطة حصينة فى مؤخرة الجيش فلا فائدة من خطبه الحماسية حتى ولو كان الخطيب مدعيا النبوة. وحين يعلم الناس أن المتحدث عن البر والتكافل والعدالة الاجتماعية والقناعة هو فى الحقيقة "ملياردير" مُراب فسوف يحاول المستمعون كتم الضحك ؛ لأن الممثل أغبى من أن يستطيع تمثيل الدور. ورضى الله عن الإمام على بن أبى طالب إذ يقول: إن الله افترض على أئمة العدل أن يساووا أنفسهم بعامة الناس كى لا يشنع على الفقير فقره.

الصدق شرط أساسى فى الإقناع ، والعاقل يحترم صدق عدوه ويحتقر كذب شقيقه. صِدقنا يُكسبنا احترام العقلاء من خصومنا ، وقد يكون سببا فى إعادة نظرهم فى أصل خصومتهم معنا. واقتناع المتكلم بما يقول يجب أن يبرز فى مظهره وسلوكه ؛ لأن الفعل أبلغ وأدل من القول. ويروى أن الناس طالبوا الحسن البصرى رضى الله بأن يتعرض فى حديثه لموضوع العتق (تحرير الرقاب) فتأخر ولم يتكلم فى الموضوع إلا بعد مدة وحين سألوه بعد ذلك عن سبب

التأخير ، أجاب بأنه لم يكن لديه من المال ما يستطيع أن يشترى به عبدا ليعتقه (كقدوة) قبل أن يتكلم ويدعو الناس ، وحين تيسر له المال فعل ثم تكلم. بمثل هذا السلوك اقتنع الناس بإمامة الحسن البصرى ، ثم بما يقول ويدعو إليه.

الصدق بطبيعته وجاذبيته يجعل المحايد أقرب إلينا من قربه لخصومنا ، وقد نصحنا خالقنا – تباركت أسماؤه – إذ يقول : ﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِين ءَامَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾ – الآية 119 – سورة التوبة. والصدق حتما ينفع صاحبه لمن عقل: ﴿.. **يَوْمَ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ** ...﴾ – الآية 119 – سورة المائدة. والصدق قيمة سامية فى كل حال وقد بشر الله الصادقين بعظم الأجر الفورى فى الدنيا متخطيا كل الأسباب التى كبرت فى نفوس قصار النظر من البشر ، ويقول رب الصدق عز من قائل : ﴿... **إِن تَنْصُرُواْ اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ**﴾ – الآية 7 – سورة محمد – صلى الله عليه وسلم. والله فى غنى عن نصرتنا له لكن بمجرد أن نصدق مع الله ونخلص له يضمن لنا النصر الفورى وترسيخ أقدامنا فيه ، مهما كانت الظروف والأسباب والموازين أو قوة الأعداء ، هذا فضلا عن عظم الجزاء **يوم يقوم الناس لرب العلمين.**

الفوائد الذهبية والفوائد الكحولية

العاقل فى نشاطه وتحركاته يبحث عن المنفعة التى تعود عليه ويتجنب الضرر الذى قد يصيبه. والحكم الصحيح على قيمة المنفعة لا يتبلور إلا بنهاية

النشاط أو الفعل الذى ينشد تلك المنفعة ، أما قبل وصول الفعل أو النشاط لنهايته فلا يكون الحكم مكتملا. كل فعل أو نشاط يستغرق وقتا ، والوقت من أثمن الأشياء (بل النعم) عند العقلاء ويجب أن يستثمر فى تحقيق أقصى منفعة. والمنفعة المؤقتة أو اللحظية لا تتميز كثيرا عن المنفعة المنعدمة ، وكلاهما سنطلق عليه مصطلح "المنفعة الكحولية" ؛ أى التى تشبه تبخر الكحول فى سرعة تبخرها تاركة خلفها برودة الضياع ، كالشهوة واللهو والتلذذ بالطعام والشراب ، والانتشاء بفاخر الثياب والشهرة ، والزهو بالجاه والثراء. كل هذه الأشياء وما شابهها لا تلبث أن تتبخر لذتها ونشوتها حتى وإن كانت حلالا ، فما زاد عن الحاجة فيه أقوال ، ومعظم هذه الأشياء يغلب عليها الطابع المادى المرتبط بالشهوات. ومن يسعى للشهرة والتفاخر والتكاثر يلهث - فى ميزان الحقيقة - وراء الوهم ولن يكتشف ذلك إلا حين لا ينفع الندم ، ﴿**وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ...**﴾ - الآية 32 - سورة الأنعام.

وفى المقابل يوجد نوع آخر من الفوائد نسميها "الفوائد الذهبيه" ليس حبا فى الذهب ولكن إشارة إلى صمود تلك الفوائد واحتفاظها بقيمتها على مر الزمن. أمثلة ذلك ثمار العلم النافع والعمل الصالح والصدقة الجارية ، وهذه الفوائد تنشد الجانب المعنوى من الأشياء ، ﴿ **وَلَلدَّارُ الأَخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ**﴾ - تكملة الآية السابقة. والعاقل حين يفكر قبل الإقدام على أى نشاط يجب عليه أن يميز الفائدة الذهبية من الفوائد الكحولية ، والخيار واضح

حين ينشط العقل السليم ، وعكسه يبرز حين يتكاسل العقل فتتأجج الشهوات وتطغى ، والعياذ با لله من شرورها.

الهدف والغاية

الحركة أو النشاط بلا هدف يعد من الحماقة والسفاهة والعبث ، ولا يليق ذلك بالعقلاء ؛ لأن التحرك بدون غاية صفة حيوانية ، ولكن السلوك البشرى يتصف بأنه يتجه نحو هدف يحدده لنفسه ، فحركة العاقل يجب أن تكون واعية تقصد الغاية أو الهدف. والأهداف تفوق الحصر وتتفاوت فيما بينها كتفاوت السماء والأرض. وقيمة الهدف تنزل فى نفوس الناس بقدر استعداداتهم العقلية. لكل فئة من المجتمع أهداف وطموحات تختلف عن أهداف الفئات الأخرى ، أو بلغة الشيوعية - غير المأسوف عليها - يوجد لكل طبقه أهداف ومصالح مشتركة، قد تتعارض مع أهداف الطبقات الأخرى ، ولا نقول بأن الصراع الطبقى حتمى ، بل نرى إمكانية الاتفاق على أهداف أشمل وأسمى تحقق الغايات وتجب صغائر الأهداف. وتجنبنا مخاطر المصارعة ، فبدلا من أن تصارعنى وأصارعك على شيء محدود ، هيا نوفر على أنفسنا جهد الصراع ونتعاون أنا وأنت لننمى ذلك الشيء ونتقى ا لله فيه وسيفيض عن حاجتى وحاجتك. بدلا من أن يكون الهدف منسوبا لشخصى أو لشخصك ، أو يبدو منحازا لصالحى أو لصالحك ، هيا نجعله منسوبا لخالقى وخالقك وتقر أعيننا فى كنفه - عز وجل. وأسمى الأهداف ما كان متجها لطلب رضا رب الأرض

والسموات ، ومتوافقا مع مراد الله من خلقه. إن استطعنا أن نجرد أنفسنا لله فما أسهل أن تتوحد أهدافنا وتتآلف قلوبنا وتطيعنا المسخرات ، بل وتفرح بنا.

كلما كان الهدف ساميا كلما قل الخلاف الفكرى حوله وكانت الرؤية ثاقبة وفيها بعد نظر وسمو نفس، ويكون التوجه مستقيما واثقا كما هو ممثل بالسهم المتجه نحو الغاية فى شكل (2) ؛ حتى لا نضل الطريق فى غمار البحث عن الجزئيات أو السعى لتوفير مطالب الحياة. وهذه الجزئيات والصغائر والأهداف الكحولية ممثلة بالتشعبات والظلال التى تحيط بخط الاستقامة الموضح بالشكل.

وعلى الجانب الآخر كلما كان الهدف وضيعا والعرض قريبا كلما عجلت النفوس الضعيفة بالاندفاع إليه والتشبث به وكثر الصراع حوله مع الابتعاد عن المنهج الموصل للغاية ، وما أكثر تلك النوعية من الأهداف القريبة الكحولية كما هو ممثل على جانبى الخط المستقيم فى شكل (2).

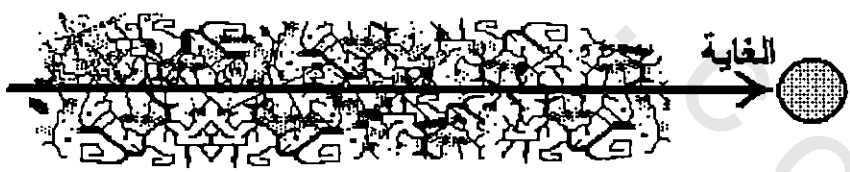

شكل (2) . التوجه الواعى نحو الغاية المحددة.

توجد للفرد أهداف وللجماعة أهداف. أهداف الأفراد أحيانا تتعارض فيما بينهم ، وأهداف الجماعة يندر الاتفاق عليها إلا إذا خلصت لله سبحانه وتعالى. وأغلب أهداف الناس أهداف مرحلية موقوتة (كحولية) وينـدر منها ما يتوجه نحو الغاية الأسمى التى ليست بعدها غاية.

ضرورة قومية

فى ضوء ما تقدم من تحليلات نقدم هنا مثالا تطبيقيا لخلاصة بعض ما نود قوله فى هذا الفصل ، وهذا المثال يتجاوز عقل الفرد إلى عقل الجماعة التى تعيش على نفس الأرض وتشترك فى الموارد والمصالح والمخصصات. فأرض بلا شعب تعنى لا وطن ؛ فالوطن يُعرف ويميز بساكنيه ، وشعب بلا أرض يعنى لا وطنية. أرض عليها شعب ممزق متصارع تعنى الضياع كل الضياع ، وأرض عليها شعب منظم تعنى التقدم وسرعة الإنجاز وتحقيق ما يشبه الإعجاز. وتنظيم المجتمع يتم بتنسيق قدراته البشرية فى ضوء نشاط الفكر والتصرف الواعى والتعبير عما يكتنزه العقل البشرى من طاقات إبداعية. وحين يضيع التنظيم ويستبدل بالفوضى وتتوحش الأنانية فيتضح أن وطن الإنسان الأنانى هو ذاته ، ونفسه هى كل دنياه ، ولسان جهله يقول : أنا ومن بعدى الطوفان!

وشكل (A-3) يمثل نموذج المجتمع الفوضوى المتناقض عديم الهدف ، الذى يتصارع أفراده بأنانية وبقوانين الغابة وتلعب به مختلف الأهواء والتيارات ،

تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى. مثل هذا المجتمع يلتهب بالاحتكاكات والمناوشات والمظالم وتزيد فيه "الإنتروبيا" **Entropy**. هذا النموذج يأكل نفسه ومصيره الهلاك ما لم يفق. والنار تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكله.

أما النموذج (B-3) فيمثل النموذج المثالى التنظيم الواضح الهدف والغاية ، والمتجرد من الأنانية والتعصب والمحصن ضد تيارات التمزيق المغرضة ، ذلك النموذج قادر على تحقيق ما يسمى بالمعجزات. حين تخفت الأنانية يصفو عقل الإنسان وتسمو نفسه وتتسع دائرة وطنه ، وقد يتدرج السمو حتى يحمل الإنسان هم البشرية كلها ويدعو لها بالهداية ولا يألو جهدا فى إسداء النصح والتذكير ، بغية سلامة المجتمع. والمجتمعات البشرية - فى الواقع - هى مخاليط من النموذجين الممثلين فى شكل (3).

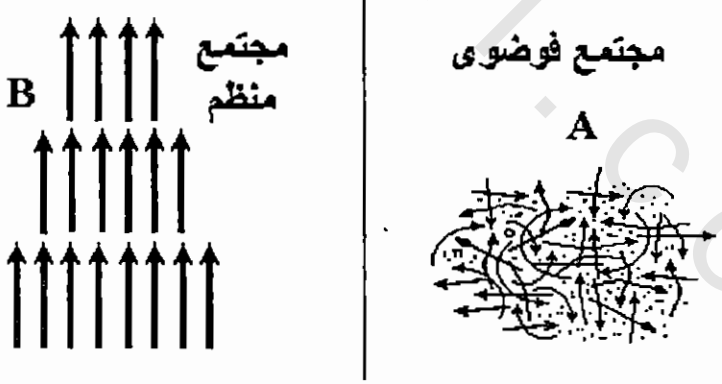

شكل (3). تمثيل نشاطى مجتمعين متباينين.

المجتمع البشرى يحتوى أناسا لهم عقول وتطلعات وأجساد وطاقات وقدرات ، فضلا عن الموارد الطبيعية التى أنعم الله بها عليهم. كل هذه النعم والموارد والطاقات والقدرات خلقت بقدر وحكمة تأبى الفوضى والعبثية ، وتنسجم مع الإحكام والنظام. وحسن الخلافة -عن الله - فى الأرض يستلزم توفير أقصى ما يتيسر من التنظيم وحسن التوظيف. والعنصر البشرى هو أساس أى نهضة ، ولو أحسن تهيئته وتنظيمه لكان خير تعويض لأى نقص ظاهرى فى أى مورد من الموارد ، وهومفتاح الحل لجميع المشاكل ، والمدخل الطبيعى للإنسان هو عقله. والإنسان العاقل هو خليفة الله فى الأرض ، ولذلك قد مكنه الله من المشاركة فى صنع الأسباب ، أسباب النجاح أو أسباب الفشل.

العقل المنظم يمكن أن ينظم خطى وحركات الجوارح ، والجوارح بقيادة العقل يمكن أن تنظم نشاط البيئة المحيطة. هذا هو التسلسل الطبيعى ، يبدأ بتنظيم محتويات العقول أولا وتلك هى القضية. جميع مكونات الجسد البشرى مادية ودرجات حريتها محدودة وحركاتها ثقيلة ، فالمعدة لا تستطيع الخروج من تجويف البطن والمخ لا يستطيع مغادرة الجمجمة ، وحركة وسرعة القدم أو الذراع محدودة بالقصور الذاتى للمادة ، وهكذا باقى مكونات الإنسان ، إلا العقل فهو يتمتع بأقصى درجات الحرية ؛ فيمكن أن ينتقل من السماء إلى الأرض فى أقل من لمح البصر ومن الشرق إلى الغرب فى أقل من طرفة عين. إنه يُشغل الجوارح ، والجوارح تغذيه ولكن لا تشغله إلا فى حالة الاستسلام للشهوات. وأيضا الجوارح تصحب العقل فى مسيرة الحياة دون أن تكون عبئا

عليه إلا عند حدوث المرض ، فالجارحة السليمة تخدم العقل دون أن ينتبه إليها أو ينشغل بها ، لكن عندما تمرض يبدأ العقل فى حمل همومها والشعور بقيمتها كنعمة كانت لطيفة وأليفة ومطيعة.

بناء على التحليلات السابقة ، نقول بأن معالجة المشاكل والتغلب على العقبات وسر النجاح كل ذلك يكمن فى العقل ، وانسجام المجتمع وتناغمه يبدأ بسلامة وتنظيم عقول أفراده ، فالعقل هو النعمة العظمى وحين يُفتقد يستوى عندئذ الموت والحياة بل قد يكون الموت أهون من الحياة ، وبعض أقارب فاقد العقل ربما يشعرون أن الموت يكون أكرم له - دون الاعتراض على قدر الله. فالمصيبة فى العقل تفوق كل المصائب مجتمعة ، وصعوبة مصائب العقل أن أغلبها كون خفيا.

وبما أن العقل يتمتع بدرجات حرية شبه مطلقة فيحتاج فى تنظيمه لقدرات فائقة لا تتوفر لدى التقليديين ولا النمطيين فضلا عن قصار النظر والأنانيين الضالين. تطويع وتنظيم الأجساد ممكن بالترغيب والترهيب ، بالذهب والسيف ، أما تنظيم العقل فيسبقه تطويع علمى منطقى صبور ، والتطويع رهن بالإقناع والإقناع جهد عقلى ، ومن يتدبر يجد فى التاريخ زعماء بلا سلطات مادية ولا أموال لكنهم ملكوا عقول الناس وحركوهم كالطوفان إلى الجهات التى حددوها ، تلك هى العظمة الذاتية.

وللنهوض يلزم تحديد هدف قومى نبيل واضح يمكن تحقيقه بحسابات وأساليب علمية يحددها أهل الخبرة وأصحاب الكفاءة. وتحقيق هذا الهدف يكون من خلال مشروع يجسد الحلم المشترك الذى تتلاقى عليه العقول والإرادات وتشحذ من حوله الهمم. ويشترط فيمن يقدم هذا المشروع للناس أن يكون صادقا أمينا نظيفا ثقة محبوبا ، أو على الأقل مقبولا. وقضية تحديد هدف قومى جيد طرحت عشرات المرات فى العديد من الدول وكثيرا ما كانت الجماهير تقابل الطرح بسخرية وتنكيت ؛ لأن مقدميه كذبة أو عملاء أو خونة أو من كبار اللصوص أو مجرد مغامرين قفزوا على السلطة بليل أو ورثوها فى المهد. وإذا تأمل القارىء فسيجد أن أعظم زعماء التاريخ كانوا - بعقولهم - من أزهد الناس فى الدنيا فأحبهم الناس بالفضل وانتفعوا بفهمهم ، بينما أشهر الطغاة كانوا - بجهالاتهم وظلام عقولهم - عباد الدنيا مصابين بسعار حب الأموال والشهوات والدنايا ، فمقتهم الناس - بالعدل - بعدما عانوا من شرورهم.